القصص

درامة من اسخيلوس

٢ - محاكمة أورست

The Eumenides

(الدرامة الثالثة من الأورستيه)

المنظر : « فى الأكروبوليس بآثينا »
الزمن : « بعد فرار أورست من الأديتون بمدة غير قصيرة(١) »
« يدخل أورست »

للأستاذ دريني خشبه

— ٦ —

— « ميزرقا يا ربة العدالة !

هاهو ذا أورست ، المنبوذ الطريد ، يلجأ اليك بعد لُغوب وأين ، وكد وعناء ، يستظل بظلك الوارف ، ويلتمس الانصاف فى جوارك ، والعدل فى حماك ، طاوياً إليك القفار من لدن أبوللو ، إلهى الكريم الذى أنفذنى إليك غير مدنس بوزر ولا مُضرّج اليدين بدم ، بعد إذ نشأت ريبة غريبة وحلّف آلام ... أصلى لك يا ميزرقا وأتبتل ! وألوذ بك وأتوسل ، أن تتأنّى فتنظرى فى أمرى ، وتشدى بعدالتك أزرى ، وتفصلى فى الحادث الجلل الذى انتدبنى أبوللو له ... فكان شجنى ... وكان حَزَنى ! »

وما يكاد أورست يفرغ من صلاته وبثه حتى تدخل ربات الذعر (٢) فيروعهن أن يرينه متحنثاً فى معبد ميزرقا

— « هيا !! إنه هو بعينه ! وإن الدم ما ينفك يقطر من يديه الآثمتين ! إنه هنا ، وقد ذرعنا الأرض باحثات عنه ! وإنا

(١) يلاحظ أن أسخيلوس لم يتقيد لا بوحدة الزمان ولا بوحدة المكان فى هذه الدرامة (٢) ذكرنا آنفاً أنهن خورس الدرامة ورئيستهن هى دائماً التى توجه الخطاب .

لنشم رائحة الدم تنتشر عنه ! لنحط به ؟ لن يفلت هذه المرة القاتل ! لقد اختبأ من قبل فى صومعة أبوللو وهو اليوم يلوذ إلى الأكروبوليس ويستجد بين يدى صورة ! صورة الخالدة ميزرقا ! يحسب أنها تضع عنه وزره ! تعال تعال ! لنمزق هذا الغض الطرى ، ولنغتذ بشبابك البض الفينان ! ولنقذف بك إلى جحيم الجحيم ! إنك لن ترى هناك مظلوما ... بل هم جميعاً مثلك قتلة ... آثمون ... عتوا على أنفسهم وعلى الآلهة وعلى الناس ! ويأتى جزاءه ثمة ! فلنسجل عليك هيدز كما سجلت عليهم ! !

معاذ الحق يا ربات الذعر ! لقد ثقفت الحكمة فى ما الشفاء ! وسترين أننى أدفع عن نفسى تلك التهمة الباطلة ، سلطاناً علويا يحل عقدة لسانى ! هاهى ذى يدى نقية بريئة طا لا أثر للجريمة فيها ! لقد اطهرت من الدم الذى ترين أن تأخ به ، لأن أبوللو ، تبارك وتقدس ، قد صب عليها شؤبوب رحم أنا لم أكن يوماً مجرماً ولا قاتلاً يا ربات ؟ ! ولقد عشت فى غرباء سنين عددا ، فلم أكن مجرماً وقاتلاً اليوم ! ؟ لم لم أ إلى أحد قبل هذه المرة إن كنت آثماً شريراً مجبولاً على ا الغير ؟ ستمر الأيام ، والزمن وحده زعيم باظهار براءتى ! وه أدعو ميزرقا بفم نقى وشفتين طاهرتين ، ولسان خير مُبَرّ تسمع إلى نجواى ، وتستجيب لندائى ، وتكون الفصل ا بينى وبينكم ؛ فقد كنت ، وكل مواطنى ، عبادها الأمناء وهى لا بد مصيخة إلى صرختى ... مهما تكن بعيدة الآن فى بعض شأنها . »

— « لا يقرن فى نفسك أبدا أن يحميك أبوللو ، أو تا عنك ميزرقا ، فقدر عليك أن تلقاه جزاء على ما اجترحت وفاة ستذهب على وجهك على أرض كلها حسك ، وفى سبيل موح إلا من الهموم والحسرات ! خرساء ! يا قاتل أمه ! سنم لحمك الذى يتدفق فيه دم خطاياك ، وسنأكلك حياً لنكو قرباناً للوطن الذى حملك ، فيقرنه جزاء له ! ! ويل لك ... و لك ! إصغ إذن لأنشودة موتك ، قبل أن نبطش بك ! »

— ٧ —

وتعزف موسيقى الجحيم ! !

فاستمع لها تماً من الرعد ، وبوقاً مفزعاً من أبواق الدار الآخرة ، ولساناً كله ذعر من ألسن هيدز ! ! لقد طفقت ربات العذاب يرقصن ويغنين ، وينفخن فى مزامير الموت ، فأنكرن من أبوللو حمايته المجرم الذى سفك دم أمه ، ووقوفه فى سبيلهن من بعد يمنعهن حقهن فى تعذيب القاتل ، وتشكين من زيوس الذى يحفهن بغير الحق ، مع ما خصهن ربات القضاء من فضل على الآلهة ... وتوعدن أورست بالويل والثبور ، وعظائم الأمور وبالطامة الناشبة التى تتردى فيها روحه بعد أن يبطشن به

وفيما هن يتغنين أغنيتهن المنكرة ، إذا ميزرقا تقيل . . . فيصمتن ! !

— « أوه ! لقد تردد فى أذنى دعاؤكم يا صحب ، إذ أنا أجول فى الأرض المفتوحة باسمى على شطئان الهلسپنت ، فرأيت أن أعود اليكم ، حائة المطى التى تعوج فى السموات ، حاملة درعى إچيس ، فما هى إلا أن خفقت خفقة أو خمسقتين ، حتى آبت إلى سيدى ! ما بالكم ؟ من هذا المسكين الراكع عند قدمى المحرم ؟ وأنتن ! العياذ بالأولاب ؟ إنكن لا تشبهن أحداً من الناس ، ولا أحدا من الآلهة ؟ يا للنكر ؟ ! ولكن ... معذرة ! ...

— « تباركت يا ابنة زيوس سيد الأولاب وكبير الآلهة ! نحن بنات الليل الدجوجئ ... ساحرات السفل ... موطننا الأعماق من هذه الأرض ! » .

— « أعلم ذلك كله ... أسماء كن ومثوا كن »

— « وتعلمين ما انتدبنا له القدر . . . صيد القتلة وتطهير الأرض من المجرمين ! »

— « والى أين ينتهى بالقاتل ، سافك الدماء ، مطافه فى هذه الدنيا ؟ »

— « الى حيث لا فسحة لأمل ، ولا مهلة لسراء ! »

— « إذن أنتن تحاصرنه هنا الآن ؟ »

— « ما دام قد رضى لنفسه أن يكون قاتل أمه ، ومهرق الدماء ! »

— « أعن رضى ؟ أم قسره على ذلك شجن لم يكن له به يدان ! ؟ »

— « وأى شجن يقسر على قتل الوالدين ؟ »

— « لقد سمعت طرفاً واحداً ... فلأسمع من الطرف الآخر »

— « إن المتهم ليعجز عن الحلف ، ومن يدرى ؟ فقد يقسم حانثا ؟ ؟ »

— « يبدو لى أنكن تؤثرن مظهر العدالة على العدالة نفسها ؟ ! »

— « وكيف يا ربة الحكمة الزاخرة ؟ أخبرينا ! »

— « إى وأرباب الأولمب ! لا تأبهن بنصر يأتى عن يمين كاذبة ! »

— « إذن سليه ! واحكمى بيننا بالحق ! »

— « وهل تقبلن أن يكون قرارى القرار الفصل ؟ »

— « أجل ! إقراراً لما لك من فضل ! ومالأبيك من نبل »

— « إذن ، أجب أيها البائس بدورك ! ولكن ، اذكر لنا أولاً : ما أنت ؟ وما موطنك ؟ وأى غم ألم بك ؟ ثم ادفع التهمة عن نفسك إن تكن باطلة ، واذكر إن كنت على حق إن صح أنك قتلتها ... إنى لأراك تلوذ بوثنى ، وتستجير بقدمى ، قل ... أجب ... تكلم ... قل الحق ... والحق الصراح »

وكفكف أورست عبراته ، وقال :

— « إلهتى ربة العدالة »

لو كنت مجرماً سفاك دماء ما جسرت أن ألوذ بك ، ولما قويت على اقتحام قدسك وتدنيس بساطك والتعلق بوثنك ، وإن سفاكا مجبولا على الشر لن يستطيع أن يتبسل بدعوى كاذبة فى حضرة ميزرقا ربة العدالة التى تستشف الأسرار وتدرك خافية القلوب وخائنة الأعين بلمحة طائرة من عينها الصائبة ... ولقد وقفت أمام آلهة أخرى من قبل ، فما كنت أجسر على قولة أرسلها إلا أن تكون حقاً .... إذن ، أنا مواطن من آرجوس ، وأبى ، يا ويح له من أب ، أحد عبادك المخلصين ؟ إن لم يكن أحبهم اليك ... أجاهنون يا ربة العدالة ! أجاهنون قائد جندك وأمير أسطولك ، الذى أعنته على أعدائك ، فانتصر على پريام وقهر اليوم ، وعاد ليسبح بحمدك ويشكر لك ... ولكن ! يا للهول ! لقد دبرت له زوجته الآثمة ... أى ... أى التى خانت عهد زوجها ، وداست عرض مملكتها ، ونتحت قلبها لغير رجلها ... أى هذه يا ربة العدالة قد دبرت لرئيس جندك ، وأخلص عبادك قتلة غادرة ، تكتنفها الظلمات ، وتضرب من حولها الأسرار ، فذبحته يوم عودته من الجهاد فى

سبيلك والذود عن اسمك ، غير راعية فيه إلاّ ولا مبقية على عهد ... ...

ثم لم تبال أن تعترف ، وجثته بين يديها ، أنها قتلته ... وأنها صاحبة دمه ... ... وكانت قد قذفت بي ، إذ أنا طفل أحوج ما يكون الى حضن أم وفؤاد أب ، الى أعماق منفى سحيق مقفر ، أعالى الذل وأدرج فى حجر النماسة ، فلما شببت وبلغت الحلم ، كان أول واجب على فى الحياة أن أثأر لأبى المظلوم ، من أمى الآثمة ، فعدت الى آرجوس وقتلتها ... أجل ... قتلتها ... قتلت المرأة التى قتلت أبى ... أقر ... أعترف ... قتلت أنفس الأمهات ، فهل سمعتن يا ربات العذاب وزبانيات جهنم ! ؟ ... ... ذلك إذن وزرى ، إن كان فى مثل هذا العمل وزر ... وقد شاركنى فيه أبوللو ... أوحى إلى أن اقتل أمك ... فقتلتها ... ولو لم تكن آثمة من قبل ما أرقت قطرة واحدة من دمها ...

هذه يا ربة العدالة قضيتى فرىّ رأيك فيها وأنا قابله ... وسأخضع له ... »

وأجهش أورست بالبكاء ... فبدا التأثر الشديد على وجه إلهة العدالة ...

— « قضية معضلة ، وكان حرى بكم يا بنى الوتى ألا تضطلعوا بها ... بل أنا نفسى أكاد أجاوز حدودى حين أقيم من نفسى فيصلاً فيها بينكم ! ويّ ! لقد أقدمت على عجل إلى أثينا ... مقدسى وطوباى ... فيالك من لاجىء سهيض الجناح ، مبتذل الروح ... فى حين تبدو صحيفتك غراء ناصعة ! ... ولكن ! ... إسغ إلى يا أورست ! لقد كدت أدعوك مواطناً ... لولا ما ينبغى لك من إيضاح براءتك ، وتمهيد طريقك ، ورأب الصدع الذى تلج منه إلى انهالك ربات الذعر ... اللاتى يأبين إلا أخذ المجرم بجرمه ... لأنه عملهنّ ، ولا محيص من أدائه لهن ... فجلّ برهانك ، وأعد حجتك ، وأيد حقك بيقين يقشع الشك ... حتى أعود بالحلفين العدول من أثينا ، لأشركهم فى هذه الحكومة الشائكة ، والقضية المربكة ... »

(تخرج مينرفا)

— ٨ —

ويستولى طائف من الشك على ربات الذعر ، وتروعهن من مينرفا هذه النعومة التى لقيت بها أورست ، فيهزجن بنشيد طويل من موسيقى الجحيم ، كله قصف وكله رعد ، وكله ودق يخرج من هذه الأفواه الشائهة ، والألسن التى تلوى كألسنة النيران ... وينعين على الانسانية ما يعصف بها من ظلم انتصرت الجريمة ، ولم يقف فى سبيلها قصاص ... « هنا تنقلب الدنيا فتصبح مباءةً للاثم ، وهنالك يغدو الناس شر من اللصوص وقطاع الطرق والسفاكين ، وهنالك لا يأمن رب على نفسه من ولده ، ولا أم هى مطمئنة على حياتها من أبنائها ويومئذ تعم الشرور وتطغى الويلات ... حتى لا يكون شبر الأرض فيه أمان لآمن ، مادمنا نحن نائمين عن المجرمين لا نأخذ بآثامهم ، ومادام هؤلاء الأرباب يضربون سلطانهم علينا ويتدخلون فى شؤوننا ، من غير حق ولا برهان مبين ... ... »

وتدخل مينرفا ، فتهتف بسادن المعبد قائلة :

— « أذّنْ فى عبادى بالصمت أيها السادن ، أو انفخ صورك حتى تردد أصداؤه فى السموات معلنة انعقاد محكمة العدل فلا يتنبس أحد ممن بالمدينة الخالدة بكلمة ، ليعوا شريعتى ولينقشوها فى صفحات صدورهم ، ولتخلد ثمة إلى ما أشاء ! »

(ويظهر أبوللو فجأة فتقول ربات الذعر :)

— « أيها الآله أبوللو ! فيم أقبلت ؟ أتشارك فى قضية ليس لك فيها شأن ؟ »

— « لقد أقبلت لأبرهن على براءة هذا الضارع البائس الذى لاذ بى ، وصلى لى ، وسألنى معونتى لأضع عنه الوزر الذى تأخذنه به ... وأقبلت كذلك لأدافع عن نفسى فيما يخصنى من هذه القضية ، لأنى شريك فى مقترف كليتمنسترا ..... أيتها الربة العادلة مينرفا ! خذى فى سؤالنا عما يبدو لك ... فانا منصتون ! ! »

فتقول مينرفا : « إذن نبدأ القضية ، ولقد سمعت حديث الاتهام من أفواه هؤلاء فكانت حجتهن دامغة وبرهانهن ساطعاً . »

فيشيع البشر فى أوجه ربات الذعر وتخاطب رئيستهن أورست قائلة :

— « هاقد سمعت ... وسمعت من قبل كلماتنا القلائل حينما اتهمناك وألقمنا عليك البينة ، فلم تتحدث ، ولتتحدث باختصار كما تحدثنا نحن من قبل ، ولتجب عن هذا السؤال أولاً : أولم تذبح أمك يا أورست ؟ ! »

— « أنا لا أنكر أنى ذبحتها يا ربات ! »

— « قضى الأمر ! ها قد فرغنا من ثلث المعركة ! »

— « تهيئن ما شئتن ؛ فانكن لم تصرعنى بعد ! »

— « ها ! ... بقى عليك أن تخبرنا كيف ذبحتها ؟ »

— « بأبيض ذى شفرتين ! أرسلته فوق رقبتها ، وخوّضت به فى صدرها ، فقطعت وتينها ! »

— « وهل حرضك على هذه الجريمة أحد ؟ »

— « بأمر أبوللو كما يشهد هو بذاك ! »

— « أمرك الآلهة ، سيد الشمس ، أن ترتكب جريمة قتل الأم ؟ »

— « أمرنى بها ، وأنا مؤمن بما فعلت ، مطمئن إليه ! »

— « ها . ها . سرعان ما تغير لهجتك حينما يسمك القضاء العادل ! »

— « سينتفض أبى فى رمسه فيحل على ! أنا لا أخشى شيئاً ! »

— « آى ! وهكذا تعتمد على العون يمدك به الموتى ! يا قاتل أمه ! »

— « إن هذه الأم تحمل وزراً مضاعفاً وإثماً أنكر من إثمى ، إن يكن لى إثم ! »

— وكيف ؟ قص على الحكمة ! »

— « أجل ! فلقد ذبحت بعلها ... وذبحت أبى ! ! »

— « لقد خلصت من أوزارها بالموت ! »

— « خلصت من أوزارها بالموت ؟ ! ها . ها ... عجيب أمركن ! ما لكن كيف تحكمن ؟ لقد قتلت زوجها ... وقتلت أبى ... وعاشت سنوات عشراً ... فأين كنتن ؟ ! لم لم تقصصن أثرها كما تقصصن أثرى ! »

— « ذلك لأن رحماً لا تصلها بمن قتلت ! ولا رابطة من دم ! »

— « إى ! وأنا ؟ أى رابطة من الدم تصلنى بمن قتلت ؟ ألمجرد حملها بى وأنها ولدتنى ؟ »

— « أكبر رابطة أيها اللعين ! لقد غذتك إذ أنت فى أحشائها ، واحتملت كثيراً من أجلك ! »

— ٩ —

وكأنما ضاق أورست ذرعاً بربات الذعر فهتف بأبوللو يقول :

— « والآن يا إلهى أبوللو أدّ شهادتك ، وليفض بالحق لسانك ! هل كنت على حق حين قتلت أمى ؟ ! إنى لا أنكر مما صنعت شيئاً ، ولكنى جد محتاج إلى دفاعك ... فقط ... لتجلو الحقيقة لهذا المجلس الموقر ، ولكل الحاضرين هنا ! ! »

فينهض أبوللو ، ويرسل حديثه فى جلالة ووقار :

— « أصارحكم القول بإجماع من حفل بهم هذا المعبد المقدس ، ولا أحسب أحداً منكم يساوره الشك فيما أقول ... أننى أبداً ما أوحيت بشىء إلى رجل أو امرأة ، إذ أنا متربع على عرشى فى السموات العلى ، إلا عن أمر يصدره لى أبى بصدد هذا الشىء ! ! وهذا ما كان فيما نحن بصدده الآن ... أرجو ألا تلفظوا ... بل آمركم بالأصالة عن أبى ! ! ! »

فتضطرب ربات الذعر وتقول كبيرتهن :

— « وتقول إن أباك — زيوس سيد الأولب — هو الذى أذنك أن توحى إلى أورست فيثأر لمقتل أبيه ، فى حين لا يبالى بمقتل أمه ؟ ! »

— « وبم يبالى ؟ ! وماذا يقدس فيها ، حين يعود رجل له وقاره ومدينته ، وإيمانه الذى لا يحد بربه زيوس ، ظافراً من ساحة الحرب ، فتذبحه زوجته الآثمة بعد أن تنصب له الأحابيل فى كل شبر من قصره ؟ ! أى زوجة هذه التى تعبث بشرف زوجها ، وتمزق عرضها ، وتنفى ولدها ، وتذل ابنتها ، وتدوس الشرائع والحرمات ! ؟ »

— « إذن هو أبوك زيوس الذى يرثى لهذا الأب المسكين الذى قتلته زوجته ! أمرك عجيب يا سيد الشمس ! أبوك زيوس ينصر أورست لأنه يثأر لأبيه ! إذن لم وضع زيوس نفسه الأغلال فى عنق أبيه كرونوس [1] وسجنه آخر الدهر ؟ أليس هذا نقيض ذاك ؟ أجب ! تكلم ! وأنت يا ربة العدالة ! وأنتم أيها الحلفون ! أعيروه أذناً صاغية ! »

— « إحساناً أيتها الهولات ! شاهت وجوهكن ! يا عدوات السماء ! إن مولاكن قد صنع ما صنع بأبيه ليكفى العالم شره — وهو مع ذاك لم يرق دمه ! »

— « إذن كيف تدافع عن هذا الطريد الذى هراق دم أمه ؟ وكيف تخول له أن يتربع على عرش آرجوس ؟ وكيف يتسنى له أن يقدم قرباناً عن فعلته ؟ وهل قربان إلا هو ؟ ! »

— « آه ! إنكن تزعمن دائماً أنه ابن كليتمنسترا ! ! وليس بعد هذا ضلال ! إنه ليس من أهلها ، لأنها حمل غير

(١) يشير اسخيلوس إلى الأسطورة القديمة التى تقول إن ساترن (كرونوس) قتل أباه أورانوس لأنه كان يقتل أبناءه لكثرتهم فلما ولد لساترن ابنه زيوس أراد أن يبتلعه ليتخلص منه ، لكثرة أبنائه كذلك ، غير أن أمه تحايلت حتى أنقذته ، فلما شب أعلن الحرب على أبيه واستطاع هو وإخوته أن يسجنوه أبد الدهر (الأستاذ توماس بلفنش)